مقدمة

تطلق كلمة المثل على الكلام البليغ المختصر، الذي شاع وانتشر لحسنه وصواب معناه، أو لاشتماله على حكمة ما. ويصبح المثل جزءاً من التراث الشعبي عندما تتناقله الألسن عبر الأجيال حاملة معه تجارب الآخرين.

وربما رأى بعض المثقفين أن اختزال الكلام بالأمثال الشعبية هو نوع من التراجع وأحد مظاهر التخلف، لما فيه من تحييد للحوارات العقلية، واعتماده على تجارب فردية قائمة على ظروف آنية بمعطيات تتغير مع تغير الزمان، فماضوية التجارب، وقدسية الرموز، وصنمية المفاهيم، عوامل ترتقي بالمثل الشعبي إلى مستوى الإيمان المطلق بصحته، وهذه كما يراها البعض إشارةٌ إلى التخلف وعلامة له.

في الوقت الذي يعتقد آخرون بأن هذه الأمثال إذا أخذت بمفهومها التاريخي والإنساني الخارج عن إطار الزمن مع جدلية الصواب والخطأ، يمكن أن تُعَدَّ تراثاً بشرياً هاماً.

تنقسم الأمثال وفق مضمونها إلى ثلاثة عناصر أساسية:

١- أمثال متعلقة بالبنية الإنسانية، فقد قيل في المثل الشعبي: "**العقل زينة**" وهذا لا يتغير بتغير الزمان والمكان.

٢- أمثال قائمة على السلوك الإنساني المطلق خارج أي إطار زماني أو مكاني كالصدق والأمانة، قيل: "**من أخد ورد ما ارتدّ، شارك النَّاس بأموالا**" (أموالا أي أموالها) إشارة إلى أهمية الوفاء بالدين.

٣- أمثال قائمة على الانفعالية، قاعدتها تجارب شخصية محصورة بزمان

ومكان معينين قد تتغير نتائجها بتغير المعطيات. قيل: "**بطيختين بالإيد ما بينحملو**"، لكن مع معطيات العصر الحالي وأدواته يمكن للإنسان أن يحمل أكثر من بطيخة في الوقت ذاته، إشارة إلى إمكانية تعدد مواهبه وتنوع اختصاصاته.

تتميز الأمثال من سائر الكلام بقصر متنها، وقلة عدد كلماتها، وغالباً ما تكون مسجّعة، وهذا أدعى لحفظها في ذاكرة الشعوب عبر الأجيال:

قيل: "**عيش يا كديش لينبت الحشيش**" (الكديش هو الفرس غير الأصيل والمثل هو إشارة إلى الشيء الذي لن يتحقق).

وتحمل الأمثال في غالبها نفَساً هجائياً أو ساخراً:

قيل: "**ياستي حسَنة شفناك فوق وشفناك تحت**" (يقصد بهذا المثل نفي الأعذار عن شخص ما).

ويعبّر التراث الشعبي (الفولوكلور) الكلامي عن المشاهدات اليومية في الحياة، وهو شرعنة للفلسفة الشعبية، وغالباً ما يرتبط بظواهر اجتماعية أخرى كالأساطير والخرافات والألغاز الشعبية:

قيل: "**طاسة طرنطاسة بالبحر غطاسة جوَّاتا لولو برَّاتا نحاسة**" (الطاسة هي الوعاء النحاسي الصغير الذي يستخدم في حمامات السوق لسكب الماء. جواتا: أي داخلها. برَّاتا: أي خارجها) في لغز يشير إلى الرمّانة.

وتعاملت الأمثال مع كل ما هو يومي انطلاقاً من مشاهدات وتجارب شخصية، ففي الطب والصحة قيل: "**من أخد الهندي أصبح جندي**" في إشارة إلى فوائد نبات الهندي الشعير المعروف شعبياً. وفي أحوال المناخ وصف للخماسين ورياحه العنيفة "**دروة ولافروة**" (لن يصاب الإنسان بالبرد إذا احتمى بمكان مغلق، وهو ما يشار إليه بالدروة. أما الفروة فعبارة عن اللباس الشتوي الذي يبعث على الدفء، أو حرفياً الفراء الواقي من البرد). وتعاملت مع الدين

والإيمان: "**صلّي الفرض ونام بالعرض**"، والسياسة: "**لو دامت لغيرك ماوصلت إلك**"، والقانون: "**العين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم**"، والتربية: "**إذا كبر ابنك خاويه**" (أي كن أخاً له)، والمال: "**ساقية جارية ولا نهر مقطوع**"، وغيرها من نواحي الحياة.

ولابد أن نفرق بين الأمثال وبين التعبيرات المشهورة التي جرت مجرى الأمثال، إذ إن الأخيرة غير كافية بذاتها ولا ترتبط بخرافة أو بتاريخ، وإنما نطق بها أشخاص في مواضع معينة فرددت بعد ذلك إلى أن أصبحت شعبية ومتداولة؛ يقال مثلاً: "**من تمّك أحلى يا كحلا**" (يا كحلا أي مكحولة العين دلالة على التحبب لشخص ما).

فبالتعريف لابد للمثل كي يكون مثلاً شعبياً أن تنطبق عليه بعض الصفات:

١- أن يكون مأخوذاً عن حكاية أو أسطورة: مثل: "**ماطال العنب قال عنو حصرم**".

٢- أو أن يعتمد على حكايا تاريخية: مثل: "**يافرعون مين فرعنك؟ قال: مالقيت حدا يردّني**".

٣- أو يكون مأخوذاً من كلام جرى على لسان شخصية تاريخية معروفة: "**الفرس من الفارس**".

٤- أو مأخوذاً من كتاب مقدس كالقرآن مثلاً: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾، أو كما يعبر عنها المثل الشعبي: "**كل عنزة معلّقة من كرعوبا**" (من كرعوبا أي من قدمها)، أو يقال: "**عم نسعى بمناكبها**" في التماس الرزق.

وتعد الحكم الشعبية أقرب ما تكون إلى المثل الشعبي، يقول أرسطو: "بعض الأمثال هي حكم" (فن البلاغة - Art of Rhetoric).

قيل مثلاً: "**لاتستنَّا سكبة جارك، بتنام بلا عشا**" (تستنا أي تنتظر، والسكبة هي الهدية من الطعام التي يعطيها الجار للجار)، في إشارة إلى الاعتماد على النفس.

لكن لابد للحكمة الشعبية حتى ترقى إلى مستوى المثل الشعبي أن تتمتع بصفات خاصة:

١- أن تكون عامة؛ أي لا تخصص لجيل أو لثقافة معينة.

٢- تتماشى مع المنطق والعقل وماعهده الناس.

٣- بعيدة عما يسيء إلى قائلها و سامعها.

٤- خالية من أي أمر يعيق حركتها وصيرورتها وانتقالها من جيل إلى جيل، أو من بلد إلى آخر؛ لأن الحكمة البشرية واحدة، كأن يقال مثلاً: "**حبل الكذب قصير**"؛ فهذه حكمة بشرية عامة غير مخصصة بثقافة بعينها، ويمكن أن نجد ما يماثلها بالمعنى في معظم بلدان العالم.

سنأتي من خلال فصول هذا الكتاب على ذكر تحليلي بعين الناقد ومجهر المحلل على مكنونات الثقافة الشعبية الكلامية، فنأخذها بالتمحيص والنقد، عسى أن نستطيع في مرحلة متقدمة تمييز الغث من السمين، وتنقية وعينا ولاوعينا مما علق فيه من أدران انعكست في الفكر والمنطق والفعل.